المحاضرة الخامسة :

الرحلات العلمية

دوافعها – طرقها – اتجاهاتها

توطئة:

حظي عدد كبير من علماء المغرب الذين هاجروا إلى المشرق العربي والأندلس باحترام و تقدير كبيرين على المستويين الشعبي و الرسمي، إذ أسندت إليهم أعلى المناصب الدينية و الأدبية بعد أن تحولوا من تلامذة متلقين إلى أساتذة مشاركين عن جدارة و استحقاق، و برزت مكانتهم أكثر سواء من خلال المدارس التي ترأسوها أو درسوا بها كقراء و محدثين و فقهاء في كل من مصر، والأندلس، وبلاد الشام، والحجاز يقصدهم الطلاب من شتى الأقطار للأخذ عنهم، أو من خلال مؤلفاتهم العلمية التي صنفوها في شتى حقول المعرفة،فأسهموا بذلك في بناء صرح النهضة العلمية التي عرفها المشرق في عهد الدولتين الأيوبية و المملوكية.

- دوافع الرحلات العلمية :

حدد جل الباحثين و المهتمين بالحركة الثقافية و العلمية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط أن تاريخ الهجرة(يعود إلى القرن الثالث الهجري، التاسع ميلادي، سواء كانت داخل المدن المغربية أو باتجاه المشرق الإسلامي، لتزداد أكثر خلال القرنين الخامس و السادس هجريين الحادي عشر و الثاني عشر ميلادي ، ولا جدال أن الدافع الديني وفي طليعته الحج إلى البقاع المقدسة شكل المحرك الأساسي لانتقال المغاربة، أما الغرض العلمي فيأتي الاهتمام به من منطلق ما تضمنه القرآن الكريم من الآيات التي تدعو إلى ضرورة طلب العلم وتحصيله وتعليمه للآخرين قال تعالى:« فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ » ومن الأحاديث النبوية قوله عليه الصلاة والسلام:« أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد »وحدث الشعبي فقال :« لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن يسمع كلمة حكمة ما رأيت سفره قد ضاع » .

هذا إلى جانب ما كانوا يطمحون إلى تحقيقه من الأجر في المرابطة على الثغور والجهاد ضد الصليبيين

فبينما فضل عدد منهم العودة، استقر بعضهم في هذه الحواضر لكن كأساتذة مشاركين لا طلبة مريدين، لأن البربر –كما سبق وأن أشرنا- اتهموا بمحدودية تفكيرهم وتطورهم الحضاري، فكانت أهم طريقة، لتجاوز هذا "الحاضر النفسي" والاجتماعي هو الرحلة إلى المشرق لتأكيد الذاتلاسيما وأن هذا الشعور "الثقافي أفرغ في صورة إحباط جغرافي" تعكسه أسطورة الطائر الكوني إذ تشير الرواية التاريخية أن الظاهر لإعزاز دين الله أحد الملوك العبديين قال لوزيره:« إني أريد أن أسمع كلام المغاربة »، فأشار إلى أحدهم ويعرف بأبي مسلم الدقي فتحدث إليه إلى أن قاطعه الوزير قائلا:« بلغنا أن الدنيا

شبهت بطائر المشرق رأسه وجناحاه الشام واليمن وصدره العراق وذنبه المغرب، فأجابه: صدقت، لكن الطائر الذي تعنيه هو الطاووس لأن أحسن ما فيه ذنبه مبعث الفخر والاعتزاز »

و تقوم شهادة الفقيه أحمد بن منتيل خير دليل على ما بلغه المغاربة من رقي فكري وحضاري، حين رأى أحد أئمة مساجد العريش بالقاهرة يقرأ الخطبة على الناس من ورقة معلقة بحذاء المنبر فأنحى باللائمة عليهم و قال:« أنتم أهل المشرق المنسوب إليهم البلاغة و الخطب على البديهة وتفتقرون إلى مثل هذا، ما رأيت مثله في شيء من نواحي المغرب و هم أضعف الناس في البلاد بما تقولون ».

و مع ذلك لم يكن لمثل هذه الآراء من تأثير على روح التواصل و مد جسور الأخوة و تمتين العلاقات بين المشرق الإسلامي و مغربه بالمراسلات و الإجازات و الزيارات، لأنه مهما اختلفت دوافع الرحلة من شخص لآخر فإن المقصد العلمي يبقى الأقوى و الأهم سواء كان صاحبها على قدر كبير من العلم أو بالقليل منه.

وبناء على ما تقدم، يمكننا طرح السؤال التالي: **هل كانت هجرة علماء المغرب إلى المشرق تهدف لإثبات قدراتهم العلمية، أم أن هناك أسباب أخرى دفعت بهم لأن يتخذوا من بلاد الشام والحجاز ومصر موطنا ومستقرا حتى قضوا نحبهم هناك؟**

الواقع أنه من خلال دراستنا لتاريخ المغرب خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس و التاسع هجريين، الثاني عشر و الخامس عشر ميلاديين الفترة موضوع البحث، يلاحظ أن المجتمع عرف جملة من التطورات مست مختلف جوانب الحياة، و ساهمت في إحداث تحولات كبرى في تاريخه الأمر الذي دفع بالعديد من أبنائه سواء من طلبة العلم أو غيرهم إلى الهجرة نحو بلدان العالم الإسلامي، هذا إلى جانب عوامل خارجية متعلقة بالحواضر المستقبلة لهم ساعدت كثيرا في استقطابهم.

- العوامل الداخلية:

ويمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

السياسية والعسكرية:

- انعدام الأمن و الاستقرار بسبب الحروب لاسيما بين صنهاجة وزناتة .

- تأثيرات الهجرة الهلالية و التي أحدثت تغيير هاما في بنية المجتمع و القبيلة و عدلت في الخريطة الديمغرافية لبلاد المغرب ككل، بعد أن اكتسحت كل البسائط و صيرتها خرابا على حد تعبير ابن خلدون، هذا من جهة و من جهة أخرى فإن الغزو النورماندي للسواحل المغربية شكل بدوره عامل بات يهدد أمنها واستقرار الساكنة

الصدامات العسكرية:

1- بين الحماديين و الزيريين سنوات 457هـ/1065م 460هـ/1067م، 510هـ/1116م، 514هـ/1120م جعل منطقة المغرب بؤرة للتوتر و انعدام الأمن،

2- بين الزيانيينو الحفصيين

الاضطهاد المذهبي:

لا شك أن الحركة الإصلاحية الدينية، والمذهبية التي قام بها الموحدون في ربوع المغرب الإسلامي قد أضرت كثيرا بالمذهب المالكي و علمائهخاصة و أنهم اعتمدوا سياسة الترهيب لفرض مبادئهم التوحديةالقائمةعلى نبذ الفروعو العودة إلى الأصول من الكتاب و السنة و فتح باب الاجتهاد، فبادروا عصرئذ إلى حرق الكتب المذهبية و تعرضوا لعلماء المالكية بالسجن و القتل، و تقوم شهادة عبد الواحد المراكشي دليلا قاطعا على عمق المأساة التي عاشها هؤلاء و ما تعرضت إليه كتبهم في عهد يعقوب بن يوسف (ت595هـ/1198م) قوله:« لقد شهدت منها يومئذ بمدينة فاس يؤتى بها بالإجمال فتوضع و يطلق فيها النار و تقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي و الخوض في شيء منه و توعد على ذلك بالعقوبة الشديدة »وكان هدفه في ذلك محو مذهب مالك و إزالته من المغرب مرة واحدةو كسر حالتا الجمود و الحصار الذي ضربه المرابطون و الفقهاء على الفكر المغربي بعد أن وصف علماء المالكية بالتقليد و الجمود و الجهل و الطغيان و التجسيم و الكفر.

ونستنتج من حصاد ما سبق أن الحركة الإصلاحية التي تبناها الموحدون و إن ساهمت في ازدهار الحياة الفكرية بالمغرب الإسلامي، إلا أن المناخ السياسي العام الذي طبع الحياة الاجتماعية دفع بالعديد من طلبة العلم إلى الهجرة نحو المشرق بعيدا عن أعين و سطوة الخلفاء الموحدين.

الأزمات الطبيعية والاقتصادية:

لم تبد المصادر المغربية اهتمامها لمختلف الأزمات التي عرفتها بلاد المغرب، وأن كل ما "جادت" به جاء في سياق العرض التاريخي والسياسي، أو بما هو مثبت في حوليات بعض المؤرخين الذين اعتادوا الإشارة إلى الأحداث الطبيعية من مجاعات وأوبئة وزلازل وفياضانات وأعاصير والجراد، دون الالتفات إلى النتائج المترتبة عنها سواء اجتماعية كانت أو اقتصادية على اعتبار أن هدفها توثيقي بحت.

ورغم حالة العوز للنصوص ذات الصلة بالأزمات الطبيعية التي عرفتها منطقة المغرب ونمطيتها في الإسطوغرافيا المغربية، إلا أنها إشارات قد تفيدنا في استجلاء بعض مظاهرها لاسيما في الفترة موضوع البحث 6- 9هـ / 12- 15م، وقد انفردت بعض المصادر بذكر السنوات العجاف التي حلت ببلاد المغرب، وانعكست سلبا على الوضع الديموغرافي لما حصدته من أرواح بشرية نتيجة تفشي الأمراض و الأوبئة دفعت بالعديد من الأهالي إلى الهجرة خوفا من شبح الجوع و انعدام الأقوات بسبب القحط الذي عم بلاد المغرب،ففي الفترة

الممتدة ما بين (616-619هـ/1216-1220م) كانت المجاعة الكبرى بسبب الجفاف، اضطر الناس فيها إلى أكل الميتة و نبات الأرض، بل قاتلت القبائل بعضها بعض، كما اجتاح بجاية وباء الطاعون سنة 714هـ / 1315م وتكرر نفس الوباء سنة 749هـ/1350م

الذي حصد آلاف من السكان، و أثناء الحصار الزياني عام 725هـ/1327م عانى أهل بجاية من غلاء الأسعار حتى وهنت قواهم بعدما لم يجدوا ما يقتاتون به،كما تسبب زحف الجراد على المنطقة في إتلاف المحاصيل الزراعية و أوقع الناس في فاقة كبيرة.

صحيح أن المجاعات و الأزمات كانت تطال كل طبقات المجتمع غير أن سكان البادية كان لهم من الإمكانات والوسائل ما يقاومون به مثل هذه الشدائد كخزن الحبوب في الأهراء مثلا.

ويمكن أن نوجز مختلف الأزمات في الجدول التالي:

جدول يوضح الأزمات التي عرفها المغرب الأوسط.

السنة	نوع الأزمة	المنطقة	مظاهر الأزمة	المصادر والمرجع المعتمد
524 – 525هـ 1129 – 1131م	قحط وجفاف	كل بلاد المغرب	نقص الإنتاج الزراعي	محمد المغرواوي: المرجع السابق، ص179.
535 – 540هـ 1140 – 1145م	مجاعة	كل بلاد المغرب	هجرة المغاربة إلى الأندلس	ابن الزيات: التشوف، ص183 ؛ البيان المغرب: ج4، ص98.
537 – 547هـ 1140 – 1145م	غلاء	جميع بلاد المغرب	شدة ودوام الغلاء	ابن الأثير: الكامل، ج11، ص125.
544هـ - 1149م	حملات الوعظ والاعتراف	مناطق متعددة من بلاد المغرب	قتل الموحدون 32030 شخصا	البيدق: المهدي بن تومرت، ص102، 105.
457 – 460هـ 1061 – 1065م	أزمات سياسية بفعل الصراع	بلاد المغرب	غياب الأمن والاستقرار في المنطقة	ابن خلدون: العبر، مج6، ص180، 181، 182.
510 – 514هـ	صراع سياسي (الحماديينوالزيريين)	بلاد المغرب	غياب الأمن والاستقرار في	ابن خلدون: العبر،

1110 – 1120م			المنطقة	مـــج6، ص180، 181، 182.
616 – 619هـ 1216 – 1280م	القحط	عـم كـل بـلاد المغرب	مجاعة كبرى حتى اضطر الناس فيها إلـــى أكـــل نبـــات الأرض	ابـــن نظيـــف الحمـــوي: التـــاريخ المنصـــوري، ص84.
714هـ - 1315م	وباء الطاعون	تونس وبجاية	حصـد العديـد مـن الأرواح	ابن الطواح: سبك المقال لفـك العقـال، ص201، هـ2.
749هـ - 1350م	وباء الطاعون	تونس وبجاية	كثرة الأموات	ابـــن مـــرزوق: المســـند الصحيح، ص265.
749هـ - 1350م	الحصار الزياني	بلاد المغرب	غـــلاء الأســـعار حتى وهنت قواهم	يحـي بـن خلـدون: بغيـة الرواد، ص217.
القرن 7هـ	زحف الجراد	تونس وبجاية	إتلاف المحاصيل	الزركشـــــي: تـــــاريخ الدولتين، ص45.
القرن 8هـ - 14م 750هـ - 1380م	الوباء العام	بلاد المغرب	سـقوط الكثيـر مـن الضحايا	ابـن قنفـذ: أنـس الفقيـر وعز الحقير، ص47.

وتضاف إلى هذه الكوارث الطبيعية متاعب أخرى تعرضت لها قبائل زواوة تجلت في الاستغلال الجبائي الذي تفرضه الدولة من مكوس و مغارم أثقلت كاهل المجتمع و زادت في معاناته.

ونستنتج مما سبق أن الظروف التي عرفها المغرب الأوسط عامة و زواوة على وجه الخصوص كانت من الأسباب التي دفعت بالعديد من الأسر الزواوية إلى الهجرة، سواء بالتنقل بين مدن المغرب أو الهجرة إلى بلاد المشرق.